قصة قصيرة

المطر.. والموا.!

علي محمد حسون

تمدّد خلف خصاص النافذة.. رائحة المطر شقّت طريقها إلى رأسه المصدوع بعد أن بللت خشب النافذة الجاف. الصور المتحركة على الجهاز اللين أمامه تدور للمرة الألف.. استرق النظر من خلال الخصاص.. المطر يهطل بغزارة ليرجم وجه الإسفلت بوابل كثيف من المياه..

الحركة في الشارع منعدمة تماماً.. في آخر الشارع مصابيح تعكس على الإسفلت الخيوط المربوطة بين السماء والأرض..

صاحب المقهى في كل لحظة يخطف كرسياً إلى الداخل كأنه بهلوان.. بداله كالمجنون الذي يلاحق الأشباح..

انحشر بعض الزبائن أمام الجهاز اللعين.. الصراخ في كل مرة يعلو مع كل كلمة.. وصوت المذيع كالمحرض في ساحة الحرب واصفاً كيفية تساقط الرؤوس عن الأجسام.

انتبهوا.. البحر من خلفكم.. العدو من أمامكم.. لقد حطمنا كل السفن.. الهرب.. الانسحاب شيء غير وارد.. أيها الناس كونوا كرّارين غير فرّارين.. ليس لكم إلا الصبر والثبات.. هل تفهمون؟

اهتز كل جسمه كأنه على أحد منابر الخطابة.. في قريته المنزوية في أحدأركان هذه الأرض.

ليس لكم إلا الصبر والثبات.. نبت في داخله شعور العظمة.. اختلط داخله بخارجه.. ضاعت لحظة الانبهار التي يعيشها على صوت المذيع.

إنها كلمة خاطفة..

إيه.. البحر من خلفكم والعدو من أمامكم..

آلمته يده وهي تعود إليه بعد أن ارتطمت بخصاص النافذة..

.. آه أين أنت يا طارق بن زياد؟

- ٢ -

المطر يشتد أكثر.. لوح الصفيح أحدث دوياً عند سقوطه في وسط الشارع الخالي من المارة، والسيارات، والقطط.. والعيون مصلوبة على الجهاز اللعين وهو يدورللمرة الألف..

- أين هي الآن؟

وقف السؤال في رأسه.. كالشجر الشيطاني الذي ينبت بدون غرس..

أراد قتل السؤال في مهده - وضع ذقنه على راحتيه بعد أن أعطى ظهره للنافذة.. الصور المتحركة أمامه.. تتقارب.. تتباعد.. المذيع يصرخ.. كأنه في ساحة حرب..

أحد المتلاكمين يلوذ بالجبال.. مراوغاً.. باحثاً عن الراحة:

- آه أين هي الراحة؟

اختلط عليه التساؤل . .

لا بد أنها تمارس العبث في موقع آخر وبشكل رسمي . . اعتصر رأسه بشدة . . . كأنه يريد أن «يسمطه» . . أخذ ينظر إلى الأشياء بتسطح ليرتاح . . لم يستطع أن يخرس هذا الدوي في داخل رأسه المصدوع . تساءل بحدّة :

- كيف هي؟

أتاه الجواب جاهزاً .

بكل تأكيد تغيّر فيها كل شيء . . كثير من الأشياء ترهّلت . . وأخرى أصابها . . . أغمض عينيه كأنه يمنعها النظر إلى كل المواقع . . ليس من حقه هذا . .

تساءل في نفسه : هل هذا معقول؟ لم يجد إلا الصمت . . والمزيد من التحديق في الجهاز اللعين . .

- ٣ -

صوت المذيع يضيع في الأصوات المرتفعة من المقهى . . صافرة «اللعسة» تختلط بصوت الرعد . . ومواء قطّة فوق شراع المقهى يشق أذنه . .

الزمن الآن له ذاكرة مليئة بالشجن . . والقهر . . سقطت القلعة المنيعة . . واستسلمت المدينة لغزو القادم . . ويدخل يده المعروقة . . بين غدائر الليل . . ليجعل منك امرأة لها احباطاتها . . من العنفوان والاعزاز . . والصلف!

- إيه . . اللعنة . .

ماذا دهاني . . ؟ غرس عينية مجدداً في الجهاز اللعين . . الأصوات لم تهدأ في المقهى . . وصوت المطر له وقع الدبيب في أوصاله . .

- ٤ -

يا مطحون . . نعم يا مطحون . . إنك تذهب كل يوم، نضرس الحصرم - وذلك العتلّ يسوطك بلسانه ونظراته، لها شواظ من نار . . قلب كفّيه في تساؤل : إيه . . الرفاق . . تناثروا في النقطة الفاصلة بين البداية والنهاية . . ما بين (القوسين) تحدث أشياء كثيرة، تموت بذور، وتعشب أخرى . . . ذاك خطفته إحداهنّ في لحظة سقوط مربع . . وهذا طحنته تروس دولاب الأيام . . .

وأنا أين أنا؟ أدقّ . . انكفأ إلى داخله . . يبحث عن مساقط النور ليرتاح . . الصور المتحركة أمامه تدور بلا هوادة . . وبلا معنى . . عيناه مغروستان في الجهاز اللعين . .

لقد كانت لكمة قوية . . صرخ المذيع، تناثرت المقاعد في المقهى . الكل يصرخ . . بالفعل يا سيدي . . كانت قاتلة . . ومقتولة . .

ضغط بأسنانه على شفته السفلى . . تلصّصت عيناه على من يشاركه الغرفة، الكل مشدود بما يرى أمامه . . صفير رواد المقهى وصوت الرعد يدخل الهلع إلى القلوب ومواء القطة على الشراع يخز قلبه .

أين أنا في وسط هذا الخضم؟

لفّته الدوامة . أخذ يحملق في الفراغ . . وصور لزجة تنساح في مخيلته . . من يده لم تأته إلا بقبض الريح .

- ٥ -

كان الرجع قاسياً . . تذكر ما دار بينهما ذات يوم عاصف : أحلام العذارى كل ما تملكين . . !

قالت وروح التحدي تشيع من نظراتها :

- الواقع يأتي من خلال الحلم . .

- لكن رجال القبيلة لا يحلمون . .

كان الرجع قاسياً وأحلام العذارى طحنتها قسوة الواقع عند دخول الفارس المغوار ليغرس عُمُده بهدوء .

جدة